محور المداخلة: مظاهر التبادل الحضاري بين الجزائر وبلدان الساحل الافريقي ما بين القرنين 16 و20 م

فضاءات التبادل التجاري بين الجزائر ودول الساحل الإفريقي على ضوء كتابات الرحالة والمبعوثين الفرنسيين خلال القرن 19م.

إعداد:
أة. هاشم كوثر / (سنة 3 دكتوراه)، جامعة الشهيد لخضر حمة بالوادي.
أ. قشاشني علي / أستاذ تاريخ حديث ومعاصر بالمركز الجامعي آفلو (الأغواط).

-مقدمة:

تعتبر كتابات الرحالة والمبعوثين الفرنسيين من المصادر التاريخية المهمة التي تشكل إطارا مرجعيا ومادة أساسية يستقي منها الباحث في الدراسات الإفريقية الكثير من المعطيات والمعلومات التي يمكن أن يؤسس عليها فرضياته النظرية وبناءه التاريخي لرسم صورة مقربة عن تاريخ العلاقات الحضارية بين الضفتين الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى خلال الفترة الحديثة، ويعد القرن التاسع عشر ميلادي من أزهى فترات الرحلات والبعثات الفرنسية نحو الصحراء الجزائرية ودول الساحل الافريقي، لعدة اعتبارات ودوافع أهمها التعبئة الكولونيالية وتمهيد الطريق نحو احتلال فرنسا لشمال وغرب افريقيا، حيث كتبت العديد من المذكرات والتقارير والأبحاث في مختلف المجالات والجوانب عن المنطقين وسكانها ومن ضمنها الجانب الاقتصادي بما فيه فضاءات التبادل التجاري بين ضفتي الصحراء الشمالية والجنوبية.

وفي هذا الإطار تأتي ورقتنا البحثية هذه للإجابة على جملة من التساؤلات هي على النحو التالي: ما هي الأهمية التي تكتسيها كتب الرحالة والمبعوثين الفرنسيين في كتابة تاريخ العلاقات الحضارية بين ضفتي الصحراء الكبرى؟ ما القيمة العلمية والموضوعية التي تقدمها هذه الكتابات عن التبادل التجاري بين الجزائر ودول الساحل الافريقي خلال القرن التاسع عشر ميلادي؟ ما أهم التحولات التي شهدها التبادل التجاري بين ضفتي الصحراء الكبرى خلال القرن التاسع عشر على ضوء هذه الكتابات.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى تقديم دراسة وصفية استقرائية لمحتوى كتابات الرحالة والمبعوثين الفرنسيين التي تطرقت للتبادل التجاري بين الجزائر ودول الساحل الافريقي خلال القرن 19م، وكذلك الوقوف على مختلف المعطيات والمعلومات التي قدمتها في هذا المجال، سيما تلك المتعلقة بالأسواق والمراكز التجارية والمسالك والطرق التجارية بين المنطقتين، إلى جانب نظم ووسائل التعامل التجاري بين الجزائر ودول الساحل الافريقي كمالي والنيجر وموريتانيا، رغم التحولات الكبيرة التي شهدتها التجارة العابرة للصحراء الكبرى خلال هذه الفترة.

والجدير بالذكر في هذا السياق أن الكتابات التاريخية حول منطقة الساحل الافريقي خلال القرن التاسع عشر، ظلت حكرا على ملاحظات وتقارير المستكشفين والرحالة وحتى الضباط الفرنسيين، الذين

رافقوا التوسعات الاستعمارية الفرنسية في افريقيا، ولم يتسن للكتابات المحلية البروز في ظل هذا الاكتساح الكبير للكتابات الفرنسية، حيث بقيت على قلتها أو ندرتها، دفينة رفوف خزائن المخطوطات العامة والخاصة آنذاك.

- عرض بيبليوغرافي لأهم الرحلات والبعثات الفرنسية نحو منطقة الساحل والصحراء الكبرى خلال القرن 19م:

لعل من أهم الكتابات الفرنسية التي اهتمت بمنطقة الساحل الافريقي في امتدادها بين ضفتي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية، نجد كتابات المغامرين والرحالة الجغرافيون الأوائل أمثال روني كاييه René Caillé ' الذي يعتبر من رواد المغامرين الفرنسين الذين توغلوا في أعماق الصحراء الكبرى، وهو أول أوروبي يعود بوصف دقيقة لمدينة تمبكتو حيث سجل الكثير من الملاحظات وأنجز رسوما قيمة أثناء رحلاته، وبذلك قدم لفرنسا والمصالح المختصة بالتوسع الاستعماري معلومات جغرافية واقتصادية وثقافية هامة تخص منطقة الساحل الافريقي، ساعدت فيما بعد في عمليات الغزو الفرنسي للجنوب الجزائري والتوسع في الصحراء الكبرى عامة [1].

وقد نظم روني كاييه René Caillé أول رحلة له سنة 1816 حيث انتقل للسنغال [2] ومنها نحو سواحل موريتانيا ثم سان لوي أين اتصل ببعثة انجليزية بقيادة الماجور غراي M. Gray لعدم توفره على معلومات كافية للتوغل أكثر في دواخل افريقيا، سيما وأن هذه الرحلة كانت خاصة ولم تتبناها أي جهة رسمية، وهو ما حال دون إتمامها فعاد لفرنسا[3]، أما رحلته الثانية فكانت بين سنتي 1824- 1828، حيث عاد للسنغال مرة ثانية، وهناك زوده الحاكم الفرنسي لهذا الإقليم بالسلع والمؤن فمكنه ذلك من البقاء في المنطقة لتعلم العربية[4] وفي سنة 1827 شرع في رحلته إلى تومبكتو بعد أن خصصت له الجمعية الجغرافية الفرنسية مبلغ مالي قدر بـ 10.000 فرنك كمكافأة لأول فرنسي ينقل ملاحظات دقيقة وإيجابية عن تومبكتو ودواخل القارة الافريقية [5].

وكان لعملية المسح الجغرافي للمناطق التي عبرها روني كاييه والتعريف بها ومميزاتها وما قدمه من معلومات مثل عدد سكان وطبائعهم وتنظيماتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكذلك المسارات والمسالك المؤدية لمختلف المدن الافريقية وتحديد المسافات الفاصلة بين المراكز الحيوية والاستراتيجية للزراعة والتصنيع، وكذلك المناطق التي تتوفر فيها ابار المياه، كل هذا مكن المؤسسات التجارية والاقتصادية الفرنسية من استثمار أموالها في منطقة الساحل وبالضبط في منعطف كل من نهر النيجر وغامبيا والسنغال، كما ساعدت الفرنسيين على فتح أسواق لسلعهم ومنتجاتهم الصناعية [6].

وقد خلف روني كاييه مجموعة من الكتب في غاية الأهمية من ضمنها كتابين عن الكشف الجغرافي لمنطقة الساحل، هما كالتالي: (Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale)

(Voyage d'un faux musulman à travers l'Afrique: Tombouctou, le Niger, Jenné et le désert) وإلى جانب روني كاييه، نجد المستكشف الفرنسي هنري دوفيرييه Henri Duveyrier [7] الذي قام بتنظيم رحلة نحو الصحراء الجزائرية في ربيع سنة 1859 على أمل العبور نحو السودان الغربي، حيث انطلق من مدينة بسكرة نحو منطقة الزيبان الصغرى ثم إقليم توات، غير أنه سرعان ما عاد إلى مدينة متليلي ثم الأغواط نتيجة الرفض الذي لقيه من سكان المنطقة، ليوجه بعد ذلك اهتماماته وأبحاثه على منطقة وادي ريغ ووادي سوف، وفي خريف سنة 1860 انتقل إلى ورقلة وتقرت كما توجه شرقا نحو منطقة الشط التونسي، أين جمع معلومات جغرافية قيمة عن هذا النطاق [8].

وبعد هذه الرحلة كلفه الوالي العام للجزائر بأن يقوم برحلة إلى التوارق من أجل ربط علاقات تجارية بين فرنسا والتوراق وقدم له الدعم الكافي للقيام بهذه الرحلة، فغادر بسكرة خلال شهر جوان من نفس السنة متوجها إلى مدينة الوادي ومنها إلى غدامس بمساعدة الشيخ عثمان أحد أعيان التوارق، ليمكث بها مدة طويلة في انتظار وصول توصية قنصل فرنسا بطرابلس، ولذلك بقي يبحث عن البقايا الحضارية للمنطقة والتراث الفكري بها، كما كون العديد من العلاقات مع سكان ووجهاء المنطقة [9]، وفي شهر ديسمبر من سنة 1860 غادر غدامس نحو غات محملا بتوصية الشيخ عثمان وزعيم التوارق إيخنوخن اللذين عملا على حمايته طيلة رحلته هذه، ومن غات انتقل لمنطقة فزان ثم طرابلس ومنها إلى الجزائر ليستعد إلى رحلة أكبر وأهم، ولكن مرضه الشديد وفقدانه للذاكرة أضناه عن تحقيق ذلك، ورغم ذلك فقد قدم معلومات هامة وقيمة حول المناطق التي زارها من خلال كتابه " توارق الشمال " les Touareg du Nord، كما هيأ الأرضية المناسبة لتوقيع معاهد غدامس بين فرنسا والتوارق[10].

ومن البعثات الفرنسية المهمة التي أرخت للتبادل التجاري بالصحراء الجزائرية خلال ذات الفترة نجد بعثة الضابط الفرنسي دو بونمان De Bonnemain الذي كلف من قبل راندون الحاكم العام للجزائر سنة1856[11]، بالتوجه نحو مدينة غدامس الليبية لمعرفة أحوال التبادل التجاري بينها وبين أسواق السودان الغربي والوقوف على واقع الحركة التجارية العابرة للصحراء الكبرى، وقد انطلق دو بونمان في رحلته هذه من مدينة تقرت ثم توجه لمنطقة وادي سوف إلى أن وصل لمدينة غدامس أين تلقى ترحيبا من حاكمها السيد عثمان باي الذي استضافه لمدة تقارب العشرون يوما، تمكن من خلالها دوبونمان من جمع الكثير من المعلومات حول أسواق غدامس ومختلف المسالك والطرق التي تؤدي لأسواق الصحراء الجزائرية وبلاد السودان الغربي كما عبر بونمان لعثمان باي عن نية فرنسا في خدمة سكان المنطقة وضواحيها في مختلف الجوانب وفي مقدمتها الجانب الاقتصادي من أجل استمالته لعقد اتفاقيات تحالف وحماية المبعوثين والتجار الفرنسيين[12].

ولم تقتصر البعثات الفرنسية للصحراء الكبرى على ذوي الأصول الفرنسية، حيث نجد الرحالة الألماني الأصل جرهارد رولفز Gerhard Rohlfes كُلف بمجوعة رحلات كشفية بين سنتي 1862

و1867 بعد أن انضم إلى مجندي اللفيف الأجنبي الفرنسي [13]، إذ اتجه إلى المغرب الأقصى وتجول في الجزء الجنوبي منه انطلاقا من السوس إلى وادي درعا ومنه إلى تافيلالت ثم منطقة فقيق ليعود لمدينة وهران، وفي الرحلة الثانية انطلق من طنجة إلى واد زيز عبر الأطلسي ومن هناك إلى وادي الساورة ثم توات ووصولا إلى عين صالح ثم غدامس وطرابلس، أما رحلته الموالية فكانت من طرابلس عبر عرق مرزوق متوجها نحو التشاد ثم بورنو ولاغوس، وبذلك يكون رولفز أول رحالة أوروبي يعبر افريقيا الغربية عبر ساحل المتوسط شمالا[14].

وقد زاد نشاط البعثات الكشفية الفرنسية للصحراء الجزائرية أواخر القرن التاسع عشر ميلادي، حيث أُرسل العديد من الضباط الفرنسين لكشف مغوار ومسالك الجنوب الجزائري والتعرف على مختلف مدنه وقراه، ومن بينهم الضابط الفرنسي بول صولييه Paul Soleillet [15] الذي قاد ثلاث رحلات بين سنتي 1872-1874 بتكليف من المؤسسة العسكرية الفرنسية وغرفة التجارة، حيث انطلقت الرحلة الأولى من الجزائر العاصمة إلى منطقة عين صالح مرورا بالأغواط وغرداية ثم متليلي، إلى جانب رحلة سنة 1878 نحو منطقة الساحل الافريقي أين انطلق من باريس باتجاه مدينة سيجو (Ségou) في إفريقيا الوسطى لمعرفة الطرق التجارية الموجودة في الناحية الغربية للنيجر، وإعداد بحث دقيق ومفصل عن منطقة سيجو وعلاقاتها التجارية مع السودان الشرقي[16].

وفي سنة 1876 قام الطبيب فيكتور لارجو Victor Largeau وبدعم من الحاكم العام بالجزائر الجنرال شانزي chanzy برحلة كشفية عبر الجنوب الجزائري على أمل الوصول للسودان الغربي، بدأها من قسنطينة نحو باتنة ثم بسكرة ثم تقرت وصولا إلى عين صالح أين واجه بعض المشاكل مع تجار القوافل حالت دون إكماله الرحلة نحو السودان الغربي، ليعود أدراجه إلى مدينة ورقلة ثم فرنسا[17]، وفي سنة 1877 قامت المؤسسة الجغرافية الفرنسية بتنظيم رحلة كشفية نحو منطقة الأهقار تحت قيادة لويس ساي louis say بغرض كشف المسالك الصحراوية وبلاد الطوارق، حيث انطلقت من الجزائر العاصمة ووصلت مدينة تقرت بتاريخ 17 أفريل 1877 ثم توجهت نحو مدنية ورقلة ومنها إلى بلاد الأهقار، غير أنها في منتصف الطريق وبالضبط في منطقة تماسين لقيت تهديدات خطيرة من سكان المنطقة، فقفل لويس ساي ومرافقيه بالعودة نحو ورقلة ثم فرنسا، هذا وقد استمرت الرحلات والبعثات الفرنسية نحو الصحراء الجزائرية ومنطقة الساحل حتى مطلع القرن التاسع عشر، مع أن أهدافها تغيرت نوعا ما، سيما بعد القضاء على المقاومات الشعبية وبسط النفوذ الفرنسي على مختلف أرجاء المنطقة[18].

-المسالك والطرق التجارية بين الجزائر ودول الساحل الافريقي خلال القرن 19:

استهوى النشاط التجاري الواسع بالصحراء الكبرى الأوروبيين أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م فعزموا على غزوها واستعمارها والسيطرة على مختلف أرجائها، وكان للفرنسين دور بارز في هذا الميدان سيما بعد أن احتلوا الجزائر شمالا ومناطق غرب افريقيا جنوبا، وعليه كان مشكل المواصلات الصحراوية من اهتماماتهم الرئيسية خلال توسعاتهم هذه، ومن خلال هذه الجزئية سنحاول عرض أهم المسالك والطرق التجارية التي كانت تربط الصحراء الجزائرية بدول الساحل الافريقي، على الرغم من تخريب الذي طالها خلال القرن 19م.

طريق الجزائر تمبوكتو: يمر عبر البليدة وبوغار ثم الأغواط وغرداية والقليعة [19]، ثم عين صالح وأقبلي وبير تيريشومين، حيث يلتقي بطريق توات تمبكتو، وهو الطريق الذي سلكه الضابط بالا[20].

طريق وهران تمبوكتو: يمر عبر مشرية وعين الصفراء وفقيق، ويتبع مجرى وادي زوزفانة، إلى إيجلي حيث يلتقي بطريق فاس إلى تمبوكتو، ولهذا الطريق فرع اخر شرق الأول، مستقيم يبدأ من خيثر، إلى البيض، والأبيض سيد الشيخ، والمنقب، وتوات، حيث يلتقي بطرق وهران وفاس ومكناس إلى تمبوكتو، وقد سلكه الضابط كولونيو عام 1860[21].

طريق قسنطينة تمبوكتو: يمر بعين مليلة وباتنة والقنطرة وبسكرة، وقبل أن يصل إلى محطة الفيض تنقسم القافلة، فيذهب الجزء الأول إلى غدامس ويسلك نفس طريقها إلى كانو، ويتجه الثاني إلى ورقلة عبر تماسين ثم يأخذ مسلكها إلى تمبوكتو أو كانو[22]، وتأتي القوافل التجارية عادة من المناطق المغاربية إلى تمبوكتو في بداية شهر نوفمبر وتعود في ديسمبر أو جانفي، غير أنها ليست بالأهمية الكبيرة التي أعطاها لها بعض الكتاب الأوربيين[23].

طريق ورقلة تادمكة غاو: ينطلق من ورقلة ومنها إلى المنيعة، ثم إلى عين صالح ومنها إلى جبل مويديرMouydir بمنطقة الهقار أين ينقسم إلى عدة مسالك أحدها يتجه إلى أغاديس التي تبعد عن أحير (تقع حاليا في جمهورية النيجر) سبعة أيام لا يصادف فيها الماء إلا مرة واحدة، وهي مدينة كبيرة تشبه مدينة تونس ولا يمكن للقافلة أن تتوغل في إفريقيا دون أن تدفع الضرائب لسلطانها، وآخر يتجه إلى غاو مرورا على منطقة أبالسة وتين زاواتين وكيدال ثم إلى بورم، ومنها إلى تادمكة وأخيرا غاو، كما أشار إلى ذلك ليفسكي Lewicki في كتابه دراسات مغربية وسودانية [24].

طريق بسكرة تمبكتو وجني: يبدأ من بسكرة في اتجاه تقرت ثم تماسين ثم ورقلة مرورا عبر المنيعة وتيميمون وعين صالح ثم أولف وأقبلي وتانزروفت ليخترق الصحراء الكبرى عبر بير مغندن ثم مبروك وبوعجابيا في اتجاه تمبكتو وسيغو ثم جني، كما يوجد طريق شرقي اخر يتجه من بسكرة نحو وادي سوف ومنها إلى الأراضي الليبية ثم افريقيا الوسطى [25].

طريق تقرت تمبوكتو: يتجه نحو الشمال ليمر بمحطة الفيض، ثم يعود نحو الجنوب الشرقي ليصل إلى كوينين ومنها إلى البئر الجديد وغدامس، ومن هنا ترحل القافلة إلى غات فتسير مدة 20 يوما لا تجد فيها الماء سوى مرتين، بعد ذلك تأخذ القافلة طريقين: الأول مستقيم يقودها إلى تمبوكتو بعد مسيرة تدوم 45

يوما، ليس فيه من الأخطار غير الكمائن التي تنصبها جماعة من التوارق والخنافسة للاستيلاء على ما في الحمولة من أشياء ثمينة وعلى الأسلحة الخاصة، والثاني يتجه إلى كانو عبر أحير وهو نفس طريق ورقلة الذي سبقت الإشارة إليه[26].

طريق وادي سوف غاط: يتجه مباشرة إلى غاط على الرغم من أن مروره بغدامس الليبية يسهل كثيرا من مهمة القوافل، لكن تجار الوادي يفضلون عدم الاتصال بالغدامسية لما بينهم من تنافس وعداوة ، ولذلك يتجهون عبر غاط ومنها إلى تمبوكتو وكانو عبر نفس المحطات[27].

طريقي توات تمبكتو، عين صالح تومبكتو: ينطلق الأول من أقبلي نحو تين تني ثم ولن وبعد أيام تدخل القافلة صحراء قاحلة منبسطة لتصل إلى إنغان ثم مبروك ثم مامون ثم أروان وهي محطة رئيسية، وبعدها تواصل القوافل طريقها نحو أعوازن ثم تمبوكتو، أما الطريق الثاني فيمر عبر تديكلت ثم اينغر ثم تيط ثم أقبلي أولف ثم تمادنانين كآخر محطة في توات، للتجه القوافل بعدها نحو حاسي تباين ثم والن، ثم صحراء تانزروفت ثم مبروك ومامون وبوجبيهة حتى تصل تومبكتو [28].

ورغم تعدد الطرق الرابطة بين الجزائر ومنطقة الساحل الافريقي، إلا أنها على ما يبدو كانت أقل نشاطا من تلك الموجودة شرقا في الأراضي الليبية أو غربا في الأراضي المغربية، وهو ما ذكره الضابط الفرنسي بول صوليه Paul Soleillet من خلال رحلته بقوله أن جل المبادلات التجارية بين افريقيا الشمالية والجنوبية خلال ذات الفترة تتم عبر طرابلس وفزان والمغرب الأقصى، حيث تنطلق القوافل من طرابلس في اتجاه مرزوق عاصمة إقليم فزان، ثم من بنغازي إلى مصر والتشاد عن طريق بيلما، أو عن طريق غدامس إلى غاط وتومبكتو، وبالنسبة للمغرب تنطلق قوافل كبيرة في شهر سبتمبر من كل سنة نحو منطقة العكة وتندوف في اتجاه تومبكتو وكانو بعد أن تنظم في مدينة تافيلالت[29].

كما يذكر أنه لم يلاحظ أي جزائريين أو تونسيين مشاركين في الحركة التجارية بين الصحراء الكبرى ومنطقة الساحل الافريقي، ويعلل ذلك بالموقع الجغرافي للبلدين وبعد المسافات بينهما وبين الجنوب، كما يعرج على تعديد الطرق التجارية الجزائرية التي كانت نشطة خلال العصور الوسطى، مثل طريق تلمسان نحو الجنوب الغربي وطريق البيض تيممون نحو توات وهو الطريق الذي عبره الضابط الفرنسي كولنيو سنة 1860، طريق الجزائر وقسنطينة الذي يتجه مباشرة نحو بلاد الهوسا عبر سبخة أماغور، وهو طريق في بالغ الأهمية التجارية، بالإضافة إلى طريق قسنطينة غدامس عبر تقرت ووادي سوف، وكذلك طريق الأغواط غاط عبر ورقلة والبيوض وهو الطريق الذي سلكه إسماعيل بوضربة سنة 1858، وأخيرا طريق الجزائر النيجر، عبر الأغواط وغرداية والقليعة وأبوتيت نحو تومبكتو[30].

ومن جهة أخرى، يذكر شارل بروصلرد Charles Brosselard أن مدن التل الجزائري مطلع القرن التاسع عشر ميلادي، كانت تكسي أهمية كبيرة في الحركة التجارية العابرة للحدود، خاصة مدينة تلمسان التي كانت تخرج منها الاف من القوافل التجارية في اتجاه المغرب وبلاد السودان الغربي، سيما أمام انسجام شبكة الطرق الرابطة بينها وبين إقليم توات، ونفس الشيء بالنسبة للوسط عبر الخط الرابط بين مدينتي

المدية وغرداية نحو الجنوب وصولا إلى غوليا، وكذلك الشرق الجزائري عبر الخط الرابط بين مدينة قسنطينة وتقرت ورقلة نحو منطقة تمبوكتو[31]، كما يقدم لنا دو بونمان De Bonnemain في إطار حديثه عن مدينة غدامس العديد من المعطيات حول المبادلات التجارية بين بعض مدن الإقليم الشرقي للجزائر وبين مدن الساحل الافريقي سيما سكان مدينة وادي سوف الذين كانوا يجلبون معهم القمح والشعير والزيوت والتمور بكل أنواعها ويستبدلونها بالجلود وأنياب الفيلة والبخور والصمغ الأبيض وغبار الذهب وغير ذلك من المنتجات والسلع الافريقية[32].

- أسواق ومراكز التبادل التجاري بين الجزائر ودول الساحل الافريقي خلال القرن 19:

كان للأحداث المتسارعة التي شهدتها الصحراء الكبرى ومنطقة الساحل الافريقي خلال القرن التاسع عشر وخاصة في النصف الثاني منه، أن حدثت العديد من التغيرات والتطورات أدت إلى تراجع تجارة القوافل العابرة للصحراء، سيما بعد أن سيطرت فرنسا على مختلف أرجاء المنطقة، وهو ما دفع جماعات شتى على حافة الصحراء أن تعمل جاهدة في مجال تصدير المنتجات الافريقية، كما راح سكان الواحات الشمالية مثل غدامس وتوات وميزاب وتافيلالت يضطلعون بدور حاسم في تنظيم التجارة وتمويلها أمام التضييق المفروض عليهم من قبل السلطات الفرنسية، في حين بقيت بعض الجماعات مثل طوارق الهقار والتوبو تتجار لحسابها الخاص بعدد ضئيل من المنتجات المحلية.

ذلك أن السلطات الفرنسية أصدرت ترسانة من القوانين والمعاهدات التي تخدمها في الصحراء منها معاهدة غدامس 1862م التي تؤكد على المكوس أو الضرائب التي تدفعها القوافل التجارية، ومعاهدة وادي ميزاب التي تنص على غلق الأسواق التجارية في وجه أعداء فرنسا، إلى جانب إصدار قانون خاص بالصحراء تزعم فرنسا من خلاله أنها تطبق الشريعة الإسلامية، حيث عرف باسم قانون نابليون بونابرت الخاص بالصحراء الصادر بتاريخ 08جانفي 1870م، حيث يحتوي على عشرين فصلا تتعلق بالمنازعات وبالحقوق وما يجب القيام به اتجاه السلطة الفرنسية، بالإضافة إلى تطبيق النظام العسكري في الصحراء الجزائرية سنة 1870م، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى عرقلت الحركة التجارية داخليا وخارجيا ومن ضمنها تلك المتجهة نحو السودان الغربي ومنطقة الساحل الافريقي عامة[33]، ومن خلال هذا العنصر من الورقة البحثية سنحاول التطرق لأهم الأسواق والمراكز التجارية التي كانت لها حضور في الحركة التجارية بين الجزائر ومنطقة الساحل الافريقي خلال القرن 19م رغم تراجع نشاطها كما ذكرنا.

- **أسواق الجزائر:**

أسواق توات: أشار دوماس Daumas إلى أن أسواق توات تخضع لتنظيم من حيث عرض السلع والبضائع، حيث تحيط بها مجموعة أبواب في خلفها أماكن تعرف بالرحبات، كرحبة الجماعة والمستور أين يلتقي التجار ويتبايعون فيما بينهم، مع أن كل رحبة تخصص لبضائع وسلع معينة كرحبة المواد الغذائية

ورحبة الجلود والاقمشة وحتى رحبة العبيد وغير ذلك من المواد التي كانت تجلب من السودان الغربي[34] وقد استفاد سكان توات من موقع اقليمهم الذي يتوسط التجارة العابرة للصحراء، حيث أصبحت أسواق توات بمثابة نقاط التقاء وتجميع القوافل العابرة للصحراء الجزائرية في قسمها الغربي ومن البديهي القول ان لكل مدينة او قصر سوقا تعقد فيه العمليات التجارية سواء بالبيع نقدا او مقايضة وهو ما جعلها المكان المفضل الذي يقصده أصحاب القوافل التجارية من خارج الإقليم خاصة تلك القادمة من السودان الغربي[35].

سوق مدينة ورقلة: يذكر بول صوليه Paul Soleillet أنه كان لورقلة سوق مركزي في وسط المدينة القديمة محاط بأقواس وبداخلها دكاكين تبيع بعض السلع المستوردة من أوروبا مثل العطور والأقمشة والسكر والقهوة وغيرها، وتعتبر ورقلة منذ القديم مركزا تجاريا مهم بالنسبة للمبادلات التجارية الخارجية سيما مع أغاديس وبلاد السودان الغربي، بها حوالي 100 ألف ساكن يعتمدون في تجارتهم على إنتاج التمر وصناعة الأقمشة، وجلب المنتوجات الأوربية التي تأتي إلى ورقلة عن طريق منطقة مزاب[36]، ويتم التعامل في أسواق ورقلة في ميدان البيع و الشراء بطريقة حضارية وراقية لا تختلف كثيرا عن المعاملات المعاصرة، أي عن طريق المزاد العلني وعن طريق المكاييل والموازين وبالعملة المعدنية بالإضافة إلى نظام البيع بالدفع المؤجل[37].

سوق مدينة الوادي: عرف سوق الوادي كأكبر سوق يعمرها التجار من مختلف الواحات الصحراوية وتشمل على أكثر من ثلاث مائة حانوت، أهم مواردها من التمور التي تنتج من أنواعها الجيدة كميات هائلة، بالإضافة إلى التبغ بنوعيه الرطب والقوي وكذلك صناعة المظلات من سعف النخيل والاقمشة الصوفية العادية، أما سكانها فقد اشتهروا بالمهارة في التجارة وفي تسيير القوافل عبر كثبان الرمل المتنقلة، وعلى الرغم من أن الوادي كانت تمثل همزة وصل بين الشمال والجنوب فإن اتصالاتها بمدن التل الشرقي لم تكن متعددة ذلك أن تجارها كانوا يفضلون الذهاب إلى الأسواق التونسية وأسواق السودان الغربي[38].

سوق مدينة وهران: كان سوق وهران من أهم المراكز التجارية الساحلية التي تعد وتنطلق منها القوافل التجارية المحملة ببضائع الشمال نحو بلاد السودان الغربي عبر كل من مدينة سعيدة والخيثر وعين الصفراء مرورا بواحات توات ووصولا إلى تومبكتو، لتعود اليها ببضائع السودان وواحات الصحراء بعد ذلك[39]، وقد اشتهرت مدينة وهران بتردد التجار الأوروبيين عليها، لذلك شهدت نشاطا اقتصاديا واسعا شمل مختلف السلع والبضائع كالجلود والاقمشة والعطور والذهب والأسلحة وغيرها من الأدوات الحديدية والزجاجية[40].

- **أسواق منطقة الساحل الافريقي:**

سوق مدينة تمبوكتو: يذكر روني كاييه René Caillé أن مدينة تومبكتو لا يوجد لديها مصدر للثروة ماعدا التجارة في الملح، كما أن تربتها غير صالح للزراعة لذلك فإن التجارة بها نشيطة جدا، ومن بين السلع التي تباع في أسواقها الملح والماء الذي يباع بواحد كوري، بالإضافة إلى الحطب المستعمل في

الإشعال رغم قلته حيث يجلبونه من مدينة كابرا، ونفس الشيء بالنسبة للمؤن الضرورية كالقمح والشعير والأرز، الذرة البيضاء، الزبدة النباتية، العسل، القطن، القماش، الأدوات الجاهزة، الشمع الصابون، الفلفل، السمك الجاف، الفستق...وغيرها، التي تجلب من أسواق مدينة جني (Jenné) وأسواق بلاد المغرب[41]، وقد قدر فليكس ديبوا Fleix Dubois حجم الأموال المتداولة في تمبكتو سنة 1895 بمقدر 460 ألف فرنك، وقال أنها لا تمثل إلا الثلث من المبلغ الحقيقي وربما تصل إلى 20 مليون فرنك فرنسي، وتم تقييم حجم التجارة بها سنة 1898 بحوالي مليونين وسبعمائة وستين ألف 2760000 فرنك دون احتساب تجارة الأرز التي تعرضت للفيضانات[42].

سوق مدينة جني: يذكر المستكشف الفرنسي روني كاييه René Caillé أن سوق جني يحتوي على كميات كبيرة من السلع والبضائع مما هو ضروري للعيش، ويخضع للتنافس المستمر بين التجار الأجانب وسكان المدن المجاورة، كما يوجد به نظام الصفوف لعرض السلع، حيث يضع التجار سلعهم بسلال موضوعة بشكل دائري [43]، بالإضافة لهذا فإن سوق جني يقدم تجارة حقيقية بدلا من نظام المقايضة البدائي كما هو معمول به في القرى، خاصة وأنه يتوفر على الكثير من السلع والبضائع الأوروبية مثل الخرز والعنبر والمرجان والكبريت والبنادق [44].

ويذكر فليكس ديبوا Fleix Dubois أن سكان السودان الغربي يرون أن مدينة جني هي المنتج وأن مدينة تومبكتو هي المستودع، لأن هذه الأخيرة سكانها وسطاء وأقل ثروة من سكان جني، غير أن هذا لم يمنع تومبكتو من تصنع لنفسها مكانة تجارية لم تصل إليها جني يوما، خاصة أن القوافل التجارية القادمة من خارج المنطقة وبالضبط من الشمال كانت تجد في أسواق تمبكتو كل ما تبحث عنه في السودان الغربي، وقلما تواصل طريقها إلى جني رغم رخص أثمان السلع والبضائع في أسواقها[45].

وإلى جانب سوقي تومبكتو وجنبي نجد مركز أروان Arouan الذي كان بمثابة نقطة التقاء لمختلف القوافل التجارية، ينتمي روادها إلى طوارق النيجر وإلى قبائل الكونتاسو البررابيش الذين هم من منطقة تومبكتو، وما يميز هذا المركز أنه يزود القوافل بالماء بالإضافة إلى أنه يتوفر على مناطق واسعة قد تستغل للرعي، والجدير بالذكر هنا أن القوافل التي تخترق الصحراء لا تسير في خط مستقيم بل تخضع للتعريج على نقاط المياه والواحات، كما يلتوي خط سيرها بسبب الظروف الطوبوغرافية مثل الدوران عبر الجبال وتجنب الوديان[46].

-السلع والبضائع المتبادلة بين أسواق الجزائر وأسواق منطقة الساحل الافريقي:

إن المتتبع لمسار حركة التبادل التجاري بين ضفتي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية عبر التاريخ، يجد أن حركة الصادرات والواردات بين المنطقتين كانت قائمة على سلع وبضائع معينة لم تستبدل ولم يتوقف استيرادها أو تصديرها حتى اضمحلال اخر القوافل التجارية العابرة للصحراء، ومما لا شك فيه

أن ذلك يعود لخصوصية كل منطقة وحاجتها أو وفرتها لهذه السلع والبضائع، ومن خلال هذا العنصر سنحاول عرض أهم السلع الصادرة من الجزائر نحو منطقة الساحل الافريقي ثم السلع الواردة منها.

السلع والبضائع الصادرة من الجزائر نحو بلاد السودان: الحبوب وكانت قوافل الشرق الجزائري تشحنها من نواحي المسيلة وسهول الفيض عن مصب وادي العرب، إلى جانب التمور التي كانت تؤخذ من أسواق الوادي وتقرت وورقلة، ثم تحمل بكميات كبيرة نحو بلاد السودان، بالإضافة إلى الأنعام والزيوت والمرجان وكذلك العطور والأقمشة الحريرية والصوفية المستوردة من خارج الجزائر والتي كانت تدر على أصحابها أموالا كبيرة بعد تحميلها نحو أسواق السودان[47].

وإلى جانب المواد الاستهلاكية كانت المواد المصنعة تعرف ازدهارا في تصديريها من أسواق الجزائر نحو أسواق منطقة الساحل الافريقي، كالسروج والألجمة والمهامز، والبارود والأسلحة على اختلافها وتنوعها، بالإضافة إلى السلع والبضائع الأوروبية التي تشحن من البندقية نحو موانئ الجزائر لتحول عبر القوافل التجارية إلى بلاد السودان[48].

السلع الواردة إلى للجزائر عبر بلاد السودان: تجلب من أسواق السودان العديد من المواد والمنتجات المحلية ومن بينها الصمغ الأبيض، والتوابل والعاج والتبغ والبخور وريش وبيض النعام الذي كان يجلب فارغا من المنح أو مغلف، كونه يستعمل في تحضير بعض العقاقير ومعالجة العديد من الأمراض مثل البرد والروماتيزم، وقد حسب رولفز غيرهارد فإن تجارة ريش النعام بلغ حجمها حوالي 25 مليون فرنك سنويا خلال منتصف القرن 19م[49].

ومن المواد التي كانت تصدر للجزائر نجد التبر الذي كان يستخرج من مناجم كثيرة في بلاد السودان، وترتفع قيمته بقدر الابتعاد عن موطنه، حيث كان يباع للتجار الأجانب بالسرة والوزنة والمثقال[50]، وإلى جانب التبر كانت تجارة العبيد منتشرة بكثرة في أسواق منطقة الساحل الافريقي، وتعتبر كل من ورقلة وتقرت مستودعات العبيد بالجنوب الجزائري ومنها يوجهون لسائر أنحاء البلاد[51]، وعن تجار العبيد بتومبكتو يذكر هنري بارث أنهم لا يجرون أعمالهم لحسابهم الخاص ولكنهم مجرد ممثلين ووكلاء لتجار الأسواق المغاربية، ووضعيتهم لا يمكن مقارنتها مع التجار الأجانب لأنهم لا يملكون رؤوس أموال[52]، هذا وكان أغلب العبيد يجلبون من داخل إفريقيا إلى السواحل عبر القوافل، وعند وصولهم إلى الأسواق تحدد قيمتهم، حسب أعمارهم و أجسادهم[53].

-خاتمة:

شهد التبادل التجاري بين ضفتي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية العديد من التطورات والتغيرات خلال القرن التاسع عشر، سيما بعد احتلال القوى الأوروبية لمختلف أرجاء القارة السمراء، وفي مقدمتها فرنسا التي حتلت شمال وغرب افريقيا وعملت جاهدة على السيطرة والتحكم في مختلف الجوانب الحيوية

بهما، ومن ضمنها التجارة الصحراوية، حيث سنت العديد من القوانين والتشريعات ساهمت في أفول واضمحلال حركة القوافل التجارية شيئا فشيئا، بعد أن كانت تشع بالحيوية والنشاط وتشكل موردا مهما وأساسيا لسكان الإقليمين.

ولعل ما تذكره كتابات الرحالة والمبعوثين الفرنسين حول قضية التبادل التجاري بين الجزائر ومنطقة الساحل الافريقي خلال القرن 19، وبالرغم مما تقدمه من بيانات ومعطيات تاريخية في غاية الأهمية، إلا أنه يمكن القول أنها تحتاج لأن تُستكمل بجميع الروايات والكتابات سواء العربية أو التركية أو الافريقية، على نحو يعوزه التنظيم والتدقيق، ذلك أن العديد من النقاط المهمة في هذا الموضوع يواجه فيها الباحث الكثير من الغموض والخلط لافتقار وقلة المادة الخبرية، ولغياب الضبط المنهجي الذي من شأنه أن يساعد الباحث في التفسير والتحليل المناسب لمختلف الوقائع والأحداث التاريخية.

---

(1)– عبد القادر بوباية، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، مجلة عصور، جامعة وهران، العدد 5/4، ديسمبر 2003 /جوان 2004، ص: 14.

(2)– إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009 ص: 403.

(3)– إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 65، 66.

) –4(René Caillé, Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique Tombouctou le Niger, Limoges Eugene Ardant, Et Editeurs, pp 18,25.

(5)– إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 70.

(6)– محمد الهقاري، دور المستكشفين الأوروبيين في اكتشاف داخل افريقيا الغربية، من 1795-1850)، رسالة ماجستير، إشراف بن يوسف التلمساني، جامعة الجزائر، 2009/2008، ص 86.

(7)–رحالة وجغرافي فرنسي ولد سنة 1840م، انطلق في رحلاته الاستكشافية في الصحراء الجزائرية سنة 1859م وعمره لا يتجاوز عشرين سنة، قدمت له المؤسسة الفرنسية الجغرافية ميدالية ذهبية سنة1867م وأصبح ابتداء من هذا التاريخ عضوا وموظفا في هذه المؤسسة الجغرافية، وكتب أكثر من عشرين عملا حول الصحراء الجزائرية نذكر منها كتاب رحلة في بلاد بني ميزاب 1859 وكتاب تاريخ استكشاف الجنوب وشمال غرب جيرفيل (البيض1872) ، ينظر:

Narcisse Faucon, Le livre d'or de l'Algérie : histoire politique, militaire, administrative, événements et faits principaux, biographie des hommes ayant marqué dans l'armée, les sciences, les lettres, etc., de 1830 à 1889, Ed : Challamel (Paris) ,1989, pp : 223,224.

) –8(Cat Édouard, A travers le désert Ed Gedalge (Paris) ,1892,pp: 25.27.

(9) –إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص ص: 411،412.

(10) – نفس المرجع، ص: 413.

) – 11(Narcisse Faucon,op cit ,p: 88.

) – 12(Vuillot Paul, L'exploration du Sahara: étude historique et géographique, Ed: Challamel (Paris), 1895,p: 49.

) – 13(Cat Édouard, op cit ,p: 29.

(14)–إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص ص: 416، 417.

(15)–ولد بول صولييه بفرنسا سنة 1842م وتوفي 1888م، كانت له رغبة كبيرة في حب السفر والترحال والمغامرات إلى الأماكن المجهولة منذ طفولته، زار الجزائر سنة 1866م وانخرط في صفوف الجيش الفرنسي سنة 1870 اختصاص مشاة، وبين سنتي 1873و1874م كلفته المؤسسة العسكرية وغرفة التجارة بإنجاز هذه المهمة الاستكشافية والاستطلاعية والتجارية من الجزائر إلى عين صالح: ينظر: Narcisse Faucon,op cit,p: 280.

) –16(Paul Soleillet, Exploration du Sahara Centrale «Avenir De La France En Afrique, Challamel Ainé, Librairé éditeur, Paris, 1876, p7. / Voir aussi / Paul Soleillet. L'Afrique Occidental e « Algeria, Mzab, Tidikelt »,Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, 1877, p10 .

(17) –أحمد ذكار، حاضرة ورجلان وعلاقاتها التجارية مع السودان الغربي من سنة 1591-1883، رسالة ماجستير، إشراف محمد حوتية، جامعة أدرار، 2010/209، ص: 158.

(18) – المرجع نفسه، ص: 159.

(19) – القليعة هي مدينة المنيعة حاليا، أول من زارها من الأوروبيين الرحالة هنري دوفيرييه في شهر سبتمبر 1859 أين دون ملاحظاته الفلكية عنها، تسمى بالمنيعة أو تاهورة أو الشعامبة واسم القليعة هو تصغير لكلمة القلعة أو القصر، واسم المنيعة يعني الممر أو الشيء المتواصل، ينظر: Paul Soleillet, Op-Cit, p229.

(20) – يحي بوعزيز، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الاوروبيين خلال القرن 19م، منشور ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م، بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية ،1984 ، ص: 128.

(21) – نفس المرجع، ص: 128.

(22) – العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، م وت، الجزائر: 1972، ص164.

) –23(Henri Barth, Voyages Et Découvertes Dans l' Afrique Septentrionale Et central pendant les Année 1849 A 1855, 1863, p104.

) –24(Tateuz Lewicki, Etudes magrébines et soudanaises. Ed scientifiques de la polognie. 1976 .P:35.

) –25(Touati Abd al Kadir, Le Sahara et le Soudan: documents historiques et géographiques, Tr: l'abbé Bargès,Ed: J. Rouvier (Paris) ,1853, p:59.

(26)–.العربي الزبيري، المرجع السابق، ص: 163-164. ينظر أيضا:

James Richardson, Routes du Sahara : itinéraire dans l'intérieur du grand désert d'Afrique, impr. De L. Martinet (Paris) ,1885.

(27)–.العربي الزبيري، المرجع السابق، ص: 163.

(28)–.مبارك جعفري، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن13هـ م19، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر: 2014، ص: 333.

) –29(Paul Soleillet, Exploration du Sahara Centrale, op cit ,p: 06.

(30)–Ibid,p06.

(31)–Brosselard Charles, Tlemcen et Tombouctou, impr. de A. Bourget (Alger) 1861 ,pp 11 16.

) –32(Narcisse Faucon,op cit ,p: 90.

(33) – أحمد ذكار، المرجع السابق، ص 166-167.

) –34(Daumas Eugen, le grand désert itinerate d'un caravan du Sahara au pays des Négres, Ed: Royaume de haoussa, paris,1848,p 67.

(35) –صالح بوسليم، المؤسسات الثقافية بإقليم توات (دراسة تاريخية من خلال وثائق محلية) أثناء القرنين 19/18 م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف محمد مجاود، جامعة بلعباس : 2008، ص: 130.

) – 36(Paul Soleillet, Op-Cit, pp 185-186.

(37)– أحمد ذكار، المرجع السابق، ص: 102.

(38)– العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ص ص: 152 153.

(39)– يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002، ص: 60.

) –40 (René Lespes,Oran ville et port Avant l'occupation francaise, inran 1934, pp:278-279.

) –41(René Caillé, Journale d'un Voyage à Tombouctou et A Jenné Dans L'Afrique Centrale, p312.

(42)– فيليكس ديبوا، تمبكتو العجيبة، تر: عبد الله عبد الرزاق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: ط1، ص: 120. ينظر أيضا:

Brosselard Charles, op cit , pp:2022.

) –43(René Caillé, op cit , pp313-315.

(44)– فيليكس ديبوا، المصدر السابق، ص ص: 144-145.

(45)–نفسه، ص:149.

(46)– إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص :60.

(47)– نفسه، ص ص:165،167.

(48)– يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص :134.

(49)– رولفز غيرهارد، رحلة إلى الكفرة، تقارير الرحالة رولفز، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2000، ص : 266.

(50)– إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص:167.

(51)– نفسه ، ص:168.

)–52(Henri Barth, Op-Cit, T4, p106.

)–53(Mungo Park, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique1795-1797, Pr :Adrian Adams, 2 ed, François Maspéro, Paris, 1980, p51.